مقالة

حرب تمّوز... وكأنّها أمس

محمد نزال

فتَح النازحون أبواب حديقة الصنائع. افترشوا أرضها. ستفيض بهم سريعاً. رجال ونساء وأطفال، بينهم عجَزة، هناك في العراء. لم تصل الخيم بعد. ستصل لاحقاً. ستُشاهد امرأة مُسنّة، في ذروة غضبها، تصرخ بأحدهم ليعطيها «بطّانيّة» أخرى. نحن في الصيف، ليس موسم دراسة، ومع ذلك لن تفتح بعض المدارس أبوابها أمام النازحين. بعضها فَتَح، وبعضها فُتِح عنوة، على أيدي شبّان هالهم وجع كبارهم، خوف صغارهم، تأكلهم محاولة إذلالهم. بعض المدارس ظلّت عصيّة على الفتح. اللبنانيّون يُحبّون بعضهم بعضاً، طبعاً، جدّاً جدّاً! أبنية قديمة، مهجورة، مهدّدة بالسقوط، فتَح النازحون أبوابها وسكنوها. المكان المنزوح عنه لا يبعد إلا بضعة أميال عن المكان المنزوح إليه. مِن الضاحية الجنوبيّة لبيروت إلى بيروت. إلى العاصمة. إلى بيروت «الغربيّة» تحديداً. أما تلك «الشرقيّة» فلن يُجازِف نازح بالتوجّه إليها أصلاً. يُمكنه أن يذهب إلى هناك، إن شاء، شرط أن يكون صاحب جيب ممتلئ. عندها يُمكنه إيجاد شقّة بالإيجار، بصعوبة، مع شرط إضافي (ضمناً): أن يكون صاحب مَظهَر، وربّما لسان، لا يشي بأنّه مِن «الآخرين». هذا أسلَم وأضمن. إنّها مغامرة. إنّه إرث الحرب القديمة. هكذا كانت روح هذه البلاد قبل 11 عاماً. إنّها حرب تموز. القصف الإسرائيلي الذي يَطال كلّ مَن لديه مشكلة مع إسرائيل. مشكلة حقيقيّة، فعليّة، على شكل مقاومة.

ما كان النازحون ليخرجوا مِن منازلهم لولا أنّهم رأوا الأشلاء تختلط بالركام. لم تعد المسألة خياراً. في اليوم الثاني مِن أيّام الحرب (13 تموز 2006 ـ مثل اليوم تحديداً) قصفت الطائرات الإسرائيلية منزلاً في قرية الدوير الجنوبيّة. عائلة مِن 12 فرداً أبيدت. الأب والأم وأولادهما العشرة. أصغرهم كانت صفاء ابنة الشهور الستّة. تلك كانت عائلة عادل عكّاش. عائلة لم يبقَ مِنها يتيم واحد. ومع ذلك، وبعد طوفان المجازر، كان النازحون، في الساعة التي حُدّدت لوقف العمليّات الحربيّة، صباحاً، قد عادوا إلى منازلهم، أو ما بقي منها. مَن لم يجد منزله نصَبَ خيمة قرب الرُكام.

في ذروة تلك الحرب، ونزيف الدم، كان «وزير الدفاع» اللبناني (آنذاك) إلياس المرّ يجتمع بالسفير الأميركي. الأخير كان قلقاً مِن اتساع رقعة انطلاق صواريخ حزب الله. سيُطمئِنه المرّ باستهزاء، قائلاً: «لن يتمكّن حزب الله مِن إطلاق صاروخ مِن سوليدير، لديّ الكثير مِن الجنود هناك». هذا ممّا جاء في وثائق «ويكيليكس». المرّ نفسه الذي فاخر أمام السفير الأميركي أنّه، في أيّام الحرب، منع وصول شاحنة محمّلة بالصواريخ إلى حزب الله، وأنّه احتجزها وأرسلها إلى وزارة الدفاع. في هذه كان صادقاً. لقد حصل هذا فعلاً. ظنّ أنّه بذلك سيَربَح، مع الإسرائيلي والأميركي، تلك الحرب (بالمناسبة، أين أصبح المرّ هذا تبع الإنتربول؟).

في تلك الأيّام، وهي كأنّها أمس لمَن عاشها كحياة أو موت، كانت ربطة الخبز تُباع بأضعاف سعرها للنازحين اللبنانيين في مناطق اللبنانيين «الآخرين». كذلك قارورة الغاز. الماء أيضاً. كلّ شيء. ربّما لم يحصل هذا في كلّ منطقة، لكنّه حصل، قطعاً، في مناطق كثيرة. مَن نزحوا إلى «جبل لبنان» يَعرفون هذا جيّداً. وليد جنبلاط يعرف هذا أيضاً. كلّ الذين جلسوا مع وزيرة الخارجيّة الأميركيّة آنذاك، كوندوليزا رايس، يعرفون هذا. أولئك الوزراء والنواب والشخصيّات، الذين كانوا، وبصدق، خائفين مِن مآلات الحرب. كانوا، تحديداً، بحسب النصّ الحرفي: «خائفين من أن يؤدّي النزاع الحالي إلى جعل حزب الله في وضعيّة أقوى في لبنان مما كان عليه في البداية». وتضيف الوثيقة الأميركيّة أنّ تلك الزمرة دعمت فكرة مواصلة القصف الإسرائيلي لأسبوع أو اثنين «إذا كان ذلك كفيلاً بإضعاف قوة حزب الله على الأرض» (كان مِن الحاضرين أمين الجميّل وجورج عدوان وبطرس حرب). لم يفت هؤلاء أن يخبروا رايس أنّهم يؤمنون بالسنيورة (فؤاد) ويدعمونه في موقعه كرئيس حكومة. حصل ذلك الاجتماع في عزّ أيّام الحرب. ليس سرّاً يُكشف للمرّة الأولى. بات مِن المعلوم، إنّما يحتاج إلى التذكير به، أقلّه في كلّ ذكرى سنويّة، ليظلّ معلوماً. هكذا كانت تلك الجماعة اللبنانيّة تختلف في السياسة مع الجماعات اللبنانيّة أخرى. كانت تسعى لأن تظلّ الطائرات الإسرائيليّة تسحق عظام الأطفال، تدمّر المنازل، تحرق الأرض بمن عليها. هؤلاء لا يزالون بيننا، كزعماء. كوزراء ونواب وأصحاب نفوذ. هذا هو لبنان... هذه العبارة القاتلة، اللعينة، الأكثر فتكاً بالروح مِن أيّ حرب.

اختيارية بحسب رغبة كل وزير»، فردت عز الدين: «صحيح أن هناك طائفية ومحاصصة. ولسنا ضد أن يعيّن أحد من فريقه السياسي، بشرط مراعاة الكفاءة. الكل هنا يمثل أحزاباً وازنة. ونحن مثلنا مثل غيرنا نعين من المحسوبين علينا، وطرح إلغاء الآلية لا يضرّنا، لكنه يخسّر البلد وطنياً». وفيما رأى الوزيران علي قانصو ومحمد فنيش أن هذه «الآلية أفضل من غيرها، ولا يمكن أن يكون هناك إصلاح من دونها»، أكّد الوزير علي حسن خليل ضرورة التشدد بتطبيق الآلية، لا تخفيفها. بينما أكد وزراء القوات أنهم في الوقت الذي «لا يتهمون أحداً بحمل خلفيات من وراء المطالبة بإلغاء الآلية»، لكنهم يرفضون بشدة إلغاءها، معتبرين أنها «تحدد المعايير والشروط الوظيفية». وعقبوا بأنهم «مع تسريع العمل الإداري، بشرط بقاء الآلية وتقليص المهل الطويلة، لأنّ من الواجب معرفة كفاءات الذين يعينون وما إذا كانوا مستوفين للشروط أو لا».

يُذكر أن آلية التعيين أقرتها حكومة الرئيس الحريري الأولى عام 2010، وتمنح الهيئات الرقابية ومجلس الخدمة المدنية دوراً في ترشيح أصحاب الاختصاصات للتعيين في الوظائف العامة، من داخل الملاك ومن خارجه. وهي تمنح فرصة شغل الوظائف العامة لمن هم خارج الانتماءات السياسية.

وبعيداً عن آلية التعيينات، أقر المجلس البند المتعلق بإنتاج الكهرباء بطاقة الرياح، فمنح وزير الطاقة تفويضاً لمفاوضة الشركات الثلاث التي قدمت عرضها للحصول على السعر الأرخص.

في سياق آخر، ما زالت قضية النازحين السوريين تتفاعل، وقد عقدت اللجنة المكلفة متابعة أمور النازحين اجتماعاً أمس في السرايا الحكومية، تركز على شقين، بحسب مصادر المجتمعين: أولاً مقاربة الوضع الحالي للنازحين وكيفية إدارته، والثاني وضع تصور للحل. في الشق الأول كان وصف المجتمعين الوضع بـ«الضاغط والسيئ، فالتوتر يتفاقم بين المجتمع المضيف والنازحين نتيجة عوامل عدة، منها فرص العمل وشؤون اجتماعية واقتصادية مختلفة». وكان توافق على ضرورة تطبيق القانون في ما يتعلق بالعمل، وعلى أهمية تسجيل الولادات السورية للحصول على بطاقات هوية سورية، وعدم السماح للنازحين الذين يعودون إلى سوريا بأن يدخلوا لبنان مجدداً. أما عن تصور الحل النهائي للأزمة، فحتى الآن لا رؤية واضحة، في ظل رأي يدعو إلى منح الأمم المتحدة دوراً في تأمين العودة، ورأي آخر يعتبر أن المنظمة الدولية غير متحمسة لعودتهم وبالتالي يجب إيجاد مخارج أخرى. وقد شكلت لجنة تقنية تابعة للوزارات المختصة لوضع نص يتناول الجوانب الإدارية التي اتفق عليها، وكذلك عن التصور للحل، على أن تعود اللجنة إلى الاجتماع في وقت قريب. وكان لافتاً في اجتماع أمس غياب وزير المال علي حسن خليل عنه.

رحيل

عبد المجيد الرافعي... طرابلس تدفن روحها

(أرشيف)

حسين رغم اختياره المنفى الطوعي منذ عام 1991، ورغم حل حزبه والترخيص للبعث الآخر كان شبه منعزل في حياة اجتماعية تشبهه في أناقتها بعيداً عن كل الصخب، ومع ذلك فإن إعلان وفاته أمس أحدث ما يشبه الهزة في طرابلس، وكأنه نبه الناس فجأة أين كانوا وأين صاروا. كانوا يغنون «بلاد العرب أوطاني»، صاروا ينادون هذا الزقاق موطني. كانوا يساجلون إن كانت القومية العربية أو القومية السورية هي الحل، فصاروا يناقشون إن كان ريفي أو الحريري هو الحل.

تحمل طرابلس الهوة الشاهقة بين ماضيها وحاضرها، وتسير بصمت اليوم خلف الطبيب الصادق النظيف الشفاف، المثال الأعلى لجيل كامل من أطباء المدينة ومفكريها ومهندسيها. سيكون يوم حزين اليوم، لكنه يوم جميل أيضاً: من انشغلوا عن رثاء عرفات وشغلتهم الملهاة الإعلامية عن الاحتلال الأميركي للعراق وتخريب سوريا وليبيا واليمن سيلتفتون إلى أنفسهم ويفكرون أين كانوا وأين أصبحوا وسيلوحون للرجل ذي البزّة البيضاء بالورود البيضاء. وفي زوايا الشوارع حين سيلمح الأطفال الجنازة المهيبة سيسألون آباءهم عمن يكون هذا الرجل الذي تبكيه المدينة ليعلق إلى الأبد الجواب في رؤوسهم: هذا الرجل أحب فلسطين وأحبته، سمى الاحتلال الأميركي باسمه، رفض الانخراط في موجة الجنون المذهبي، وبقي علمانياً علمانياً، وله في كل منزل طرابلسي ذكرى جميلة. وهو ينتمي إلى زمن يبقى بكل انكساراته أفضل بألف مرة ومرة من زمنكم...

(يصلى على جثمان النائب السابق عبد المجيد الطيب الرافعي بعد صلاة عصر اليوم الخميس في المسجد المنصوري الكبير، ثم يوارى الثرى في مدافن باب الرمل).

غسان سعود

تحمل طرابلس اليوم زمنها الجميل وتسير بصمت. تحمل كل الرايات الحمراء وأعلام فلسطين والجزائر والعراق وليبيا واليمن وتعضّ على حاضرها وتمشي صوب الجبانة. تحمل كوفية أبو عمار وتمشي مكسورة. هو ليس وداع عبد المجيد الرافعي، بل هو الإعلان الرسمي لانتهاء مرحلة. إنه وداع نصف قرن من حياة المدينة السياسية. تأخر الإعلان الرسمي عدة سنوات، لكنه أذيع أمس عند إعلان وفاة طبيب الناس. تحمل المدينة أحلام جيل وتمشي مطأطأة الرأس. هزم هذا الجيل. هزم قبل سنوات. سقطت صور صدام وحافظ الأسد وكتب ميشال عفلق والكوفية والعلمانية عن الجدران، ولم يعد أحد يحلم. الحلم في عالم اليوم ممنوع، يقايض الزمن الحالي أحلام الزمن الجميل بكراتين الإعاشة. «لا تقل بماذا تحلم حتى ننتخبك، إنما حدد كم تدفع». قبل كراتين الإعاشة كان سياسيون كثر يرسلون للعائلات في المناسبات بوصلة تشير إلى فلسطين وأناشيد. كان سياسيين أطباء، لا تجاراً، وكان الأطباء زعماء لا رجال أعمال. تحمل طرابلس اليوم آخر قاماتها في صندوق من الكرامة وتسير بخجل صوب الجبانة. الرجل الذي هزم أسطورة آل كرامي عام 1972 بفضل سماعة الطبيب؛ عبد المجيد الرافعي، صديق الرئيس ميشال عون، الذي ترأس حزب البعث في لبنان وبقي اسمه مرتبطاً بالرئيس العراقي صدام